الافتقار إلى الله
لُبُّ العبودية

تأليف

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

(ح) **مجلة البيان ، ١٤٢٥هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصويان، أحمد بن عبد الرحمن (الرياض)

الافتقار إلى الله .. لبُّ العبودية ـ أحمد بن عبد الرحمن الصويان، الرياض، ١٤٢٥هـ

٦٤ ص؛ ١٤× ٢٠

ردمك: X ـ ٣ ـ ٩٤٤٩ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الوعظ والإرشاد. ٢ ـ الإيمان(الإسلام)

أ ـ العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٥/١٥٤

رقم الإيداع: ١٥٤ / ١٤٢٥

ردمك: X ـ ٣ ـ ٩٤٤٩ ـ ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمة

● **الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.. وبعد:**

فقد اعتاد بعض المثقفين المعاصرين ذم الخطاب العاطفي مطلقاً والتهوين من شأنه، ويذكرونه ـ غالباً ـ في مقابل الخطاب العلمي المتزن، والخطاب الفكري العميق؛ ولهذا قد يَزْهد بعضهم في المواعظ، ويأمر المثقفين وطلبة العلم بالانفضاض عن الوعاظ مطلقاً، فحديثهم ـ فيما يزعم ـ يصلح للعامة والدهماء والبسطاء..!

ولا شك في أن الخطاب العلمي هو الخطاب الذي ينبغي أن يُعتمد عليه، ولكن لماذا لا نعدُّ الخطاب الوعظي خطاباً علمياً..؟!

أهو بالنظر إلى حقيقة الخطاب الوعظي؟ أم إلى ما تعارف عليه الوعاظ؟

ثم ألا يمكن الارتقاء بالخطاب الوعظي ليكون جامعاً بين الالتزام العلمي والبناء العاطفي..؟

لقد وصف الله ـ تعالى ـ كتابه العزيز بأنه (موعظة)، فقال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤]. وقال الله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[يونس: ٥٧].

ووعظ الله - عز وجل - عباده في كتابه العزيز في مواعظ كثيرة، منها قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]. وقال: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٧]. وقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ومن المسائل الجديرة بالتأمل: أنَّ بيان كثير من الأحكام الشرعية في القرآن يُصدَّر بالموعظة أو بالأمر بالتقوى أو يُختم بأحدهما، ومن ذلك: أن الله لَمَّا ذكر أحكام الفرائض قال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣ - ١٤]. وقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وفي سياق آيات الطلاق قال الله - تعالى -: ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢].

وأمر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ رسوله ﷺ بأن يعظ الناس، فقال: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ [النساء: ٦٣]، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعظ أصحابه رضي الله عنهم، ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأنها موعظة مودّع؛ فأوصنا...»(١). وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئاً على بلال، فأمر بتقوىٰ الله، وحث علىٰ طاعته، ووعظ الناس وذكّرهم، ثم مضىٰ حتىٰ أتىٰ النساء، فوعظهن وذكّرهن... الحديث»(٢).

ومواعظ النبي ﷺ لأصحابه كثيرة جداً، وحسبك أن تقرأ كتاب (الرقاق) في صحيح البخاري لتقف علىٰ شيء كثير من مواعظه عليه الصلاة والسلام.

إن الموعظة إحياء للقلب، وكبح لجموح النفس وإسرافها، وبُعْدها عن

---

(١) أخرجه: أحمد، (٢٨/ ٣٦٧ و ٣٧٣ـ٣٧٧)، رقم (١٧١٤٢ و ١٧١٤٤ـ ١٧١٤٧)، وأبو داود في كتاب السنة، (٤/ ٢٠٠)، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم، (٥/ ٤٤)، رقم (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه: مسلم في كتاب صلاة العيدين، (١/ ٦٠٣)، رقم (٨٨٥).

ربها، وغفلتها عن ذكره، والقلب الجامد الذي لا يتأثر بالموعظة كالصخرة الصمّاء، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «اللهم! إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع»[1]. كما أن العين المجدبة التي لا تبكي من خشية الله لا نور فيها، قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[2].

تأمل تربية النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، وسوف ترىٰ أنَّ النبي ﷺ بمواعظه استطاع أن يُطهرهم من حظوظ النفس وأهوائها، ويُليِّن قلوبهم، ويجعلها تتعلق بالآخرة، ومن أبلغ الأمثلة علىٰ ذلك ما رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أنَّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله علىٰ رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ؛ يعطي قريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!».

سبحان الله! موقف عجيب استثار بعض الأنصار - رضي الله عنهم - وكاد يذهب ببعضهم مذهباً بعيداً؛ لكن انظر إلىٰ موعظة النبي ﷺ لهم، وكيف أنه هذّب نفوسهم، وطهرها من علائق الدنيا.. مواعظ

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب الذكر والتوبة والاستغفار، (٤/ ٢٠٨٨)، رقم (٢٧٢٢).

(٢) أخرجه: الترمذي في كتاب فضائل الجهاد، (٤/ ١٧٥)، رقم (١٦٣٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (٣٩٩١).

يسيرات؛ لكنها تجاوزت الآذان لتستقر في القلوب!

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: «فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدعُ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ، فقال: ما كان حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاؤهم: أما ذوو آرائنا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منّا حديثة أسنانهم؛ فقالوا: يغفر الله لرسول ﷺ؛ يعطي قريشاً ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم! فقال رسول الله ﷺ: إني لأعطي رجالاً حديثٌ عهدهم بكفر، أَمَا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ﷺ! فو الله! ما تنقلبون به خير ممَّا ينقلبون به. قالوا: بلى يا رسول الله! قد رضينا. فقال لهم: إنكم سترون أثرة شديدة؛ فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ على الحوض»[(١)].

إن ذلك كله يؤكد أن الوعظ ليس خاصاً بالعامة فحسب، بل إن العلماء والمفكرين وطلبة العلم أحوج ما يكونون إلى الموعظة؛ فهي تهذيب للنفس، وترويض لكبريائها وشططها، تدفع المرء للتجرد في البحث عن الحق، والصدق في التماس الدليل الصحيح، وفي الترجيح

(١) أخرجه: البخاري في مواضع عديدة، منها: كتاب فرض الخمس، (٦/ ٢٥١)، رقم (٣١٤٧).

بين الأقوال، فلا يتيه به الهوىٰ في دركات التعصب والاعتداد بالنفس وبطر الحق، خاصة في زمن الفتن وانتشار الأهواء والشبهات، ولهذا كان العلماء أكثر الناس خشية لله ـ تعالىٰ ـ وقنوتاً إليه، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [**فاطر** : ٢٨]. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [**الزمر** : ٩].

كما أن في الموعظة استثارة للغيرة في قلب الداعية، تدفعه إلىٰ علو الهمّة، وصدق العزيمة، وتطرد عنه غبار الفتور والعجز، وتستنهضه لبذل قصارىٰ الجهد في تبليغ الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفيها تثبيت لأهل العلم والدعوة أمام مكايد الأعداء، وأحابيل المفسدين، وظلم الملأ المستكبرين.

وفيها إحياء للقلب المُعرض الذي أَسَرَه الهوىٰ، وسيطر عليه التقليد والتبعية، فجعله يُدْبر عن ذكر الله تعالىٰ، قال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ** ﴾ [**سبأ** : ٤٦].

إنَّ مواعظ القرآن والسنَّة قوارع تهز القلب وتحييه، وتزيل الران عنه، وتجعل العبد المؤمن يتوجه بكليته إلىٰ ربه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ تائباً منيباً إليه.

وفي هذه الرسالة المختصرة التي أسميتها: (الافتقار إلى الله.. لب العبودية) عالجت موضوعاً أحسب أنه من الموضوعات الحيوية التي تكثر الحاجة إليها عند الخاصة والعامة، حرصت فيها على يسر العبارة، وسهولة العرض، قدر الطاقة، فما أصبت فيه فمن فضل الله - عز وجل - وتوفيقه، وله الحمد والشكر، وما أخطأت فيه فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله العلي العظيم.

وأسأل الله - عز وجل - أن يجعلنا من التوّابين المنيبين.. وصلى الله على محمد وآله وسلم.

أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan-magazine.com

الرياض ١١٤٩٦

ص.ب ٢٦٩٧٠

الافتقار إلى الله.. لُبُّ العبودية

من أخص خصائص العبودية: الافتقار المطلق إلى الله تعالى، فهو: «حقيقة العبودية ولبُّها»[١]. قال الله - تعالى -: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [**فاطر**: ١٥]، وقال - تعالى - في قصة موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [**القصص**: ٢٤].

عرَّفه الإمام ابن القيم - رحمه الله - بقوله: «حقيقة الفقر: أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء؛ بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثمَّ ملك واستغناء مناف للفقر». ثم قال: «الفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله - تعالى - من كل وجه»[٢].

فالافتقار إلى الله - تعالى - أن يُجرِّد العبد قلبه من كل حظوظها وأهوائها، ويُقبل بكليته إلى ربه - عز وجل - متذللاً بين يديه، مستسلماً لأمره ونهيه، متعلقاً قلبه بمحبته وطاعته. قال الله - تعالى -: ﴿ **قُلْ إِنَّ**

(١) مدارج السالكين، (٢/ ٤٣٩).
(٢) المرجع السابق، (٢/ ٤٤٠).

صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قال يحيىٰ بن معاذ: «النسك هو: العناية بالسرائر، وإخراج ما سوىٰ الله ـ عز وجل ـ من القلب»(١).

والمتأمل في جميع أنواع العبادة القلبية والعملية يرىٰ أن الافتقار فيها إلىٰ الله هي الصفة الجامعة لها، فبقدر افتقار العبد فيها إلىٰ الله يكون أثرها في قلبه، ونفعها له في الدنيا والآخرة، وحسبك أن تتأمل في الصلاة أعظم الأركان العملية، فالعبد المؤمن يقف بين يدي ربه في سكينة، خاشعاً متذللاً، خافضاً رأسه، ينظر إلىٰ موضع سجوده، يفتتحها بالتكبير، وفي ذلك دلالة جليَّة علىٰ تعظيم الله ـ تعالىٰ ـ وحده، وترك ما سواه من الأحوال والديار والمناصب. وأرفع مقامات الذلة والافتقار أن يطأطئ العبد رأسه بالركوع، ويعفِّر جبهته بالتراب مستجيراً بالله منيباً إليه، ولهذا كان الركوع مكان تعظيم الله تعالىٰ، وكان السجود مكان السؤال، قال رسول الله ﷺ: (فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء؛ فقَمِنٌ أن يستجاب لكم)(٢).

---

(١) ذم الهوىٰ، لابن الجوزي، (ص ٦٩).
(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الصلاة، (١/ ٣٤٨)، رقم (٤٧٩).

ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ في ركوعه: «اللهم! لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت. خشع لك سمعي، وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي»(١).

قال الحافظ ابن رجب: «إشارة إلىٰ أن خشوعه في ركوعه قد حصل لجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب الذي هو ملك الجوارح والأعضاء، فإذا خشع خشعت الجوارح والأعضاء كلها؛ تبعاً له ولخشوعه». ثم قال: «ومن تمام خشوع العبد لله ـ عز وجل ـ وتواضعه في ركوعه وسجوده؛ أنَّه إذا ذلَّ لربه بالركوع والسجود، وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو، فكأنه يقول: الذل والتواضع وَصْفي، والعلو والعظمة والكبرياء وَصْفك»(٢).

إنَّ هذه المنزلة الجليلة التي يصل إليها القلب هي سرُّ حياته وأساس إقباله علىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ؛ فالافتقار حادٍ يحدو العبد إلىٰ ملازمة التقوىٰ ومداومة الطاعة.

ويتحقق ذلك بأمرين متلازمين؛ هما:

الأول: إدراك عظمة الخالق وجبروته:

فكلما كان العبد أعلم بالله ـ تعالىٰ ـ وصفاته وأسمائه كان أعظم افتقاراً

(١) أخرجه: مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، (١/ ٥٣٥)، رقم (٧٧١).
(٢) الخشوع في الصلاة، لابن رجب الحنبلي، ص (٤١ ـ ٤٣).

إليه وتذللاً بين يديه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [**فاطر**: ٢٨]، وقال: ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [**الإسراء**: ١٠٧ – ١٠٩].

وقال الفضيل بن عياض: «أعلم الناس بالله أخوفهم منه»[(١)]، وقال: «رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله»[(٢)].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «أصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته، وجلاله وكماله؛ فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع. ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع»[(٣)].

ومَنْ تدبر الآيات البينات والأحاديث الشريفات التي جاء فيها ذكر صفاته العلى وأسمائه الحسنى؛ انخلع قلبه إجلالاً لربه، وتعظيماً لمقامه،

(١) سير أعلام النبلاء، (٨/ ٤٢٧).
(٢) المرجع السابق، (٨/ ٤٢٦).
(٣) الخشوع في الصلاة، (ص ٢٠).

وهيبة لسطوته وجبروته سبحانه وتعالى.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٩ – ٦١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم

يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؟ أين المتكبرون)[١].

قال الإمام ابن القيم: «القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء. وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها؛ بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء ..». ثم قال: «.. وجماع ذلك: أنه ـ سبحانه ـ يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همَّه دون ما سواه. ويوجب له شهود

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (٤/٢١٤٨)، رقم (٢٧٨٨)، واللفظ له، وأخرجه البخاري مختصراً في كتاب التوحيد، (/ ٣٩٣ ١٣)، رقم (٧٤١٢). وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، (٤/ ٢٣٤)، رقم (٤٧٣٢) بلفظ: (ثم يطوي الأرضين، ثم يأخذهن بيده الأخرى).

صفات الربوبية التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له»(١).

وعرّف ابن القيم الخشوع بأنه: «خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعم الله، وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح»(٢).

الثاني: إدراك ضعف المخلوق وعجزه:

فمن عرف قدر نفسه، وأنَّه مهما بلغ في الجاه والسلطان والمال فهو عاجز ضعيف لا يملك لنفسه صرفاً ولا عدلاً؛ تصاغرت نفسه، وذهب كبرياؤه، وذلَّت جوارحه، وعظم افتقاره لمولاه، والتجاؤه إليه، وتضرعه بين يديه. قال ـ عز وجل ـ: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ**﴾ [**الطارق**: ٥ ـ ١٠].

وقد جمع الإمام ابن القيم بين هذين الأمرين بقوله: «مَنْ كملت عظمة الحق ـ تعالى ـ في قلبه؛ عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة العظيم

(١) الفوائد، (ص ٨٢ ـ ٨١).
(٢) الروح، (ص ٢٣٢).

ليست كمخالفة مَنْ هو دونه. ومَنْ عرف قدر نفسه وحقيقتها؛ وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه؛ عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونَفَس. وأيضاً فإذا عرف حقارتها ـ مع عظم قدر من خالفه ـ؛ عظمت الجناية عنده؛ فشمَّر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به؛ يكون تشميره في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به؛ يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به»[1].

---

(١) مدارج السالكين، (١/ ١٤٥ ـ ١٤٤).

من علامات الافتقار إلى الله ـ تعالى ـ

العلامة الأولى: غاية الذل لله ـ تعالى ـ مع غاية الحب:

فالمؤمن يُسلم نفسه لربه ـ منكسراً بين يديه، متذللاً لعظمته، مقدماً حبَّه ـ سبحانه وتعالى ـ على كل حب. طمأنينة نفسه، وقرَّة عينه، وسكينة فؤاده؛ أن يعفِّر جبهته بالأرض، ويدعو ربه رغبة ورهبة، قال ابن جرير الطبري: «معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة»[(١)].

ومَنْ كانت هذه هي حاله وجدته وقَّافاً عند حدود الله، مقبلاً على طاعته، ملتزماً بأمره ونهيه، فثمرة الذل: أن لا يتقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، مهتدياً بقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [**الأحزاب**: ٣٦]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [**البقرة**: ٢٨٥]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [**النور**: ٥١ ـ ٥٢].

---

(١) تفسير ابن جرير، (١/ ١٥٥).

قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «ما ضربتُ ببصري، ولا نطقتُ بلساني، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قدمي، حتى أنظر أعلى طاعة أو على معصية؟ فإن كانت طاعة تقدمتُ، وإن كانت معصية تأخرتُ»(١).

وأمّا مَنْ طاشت به سبل الهوى، ولم يعرف الله ـ عز وجل ـ حق المعرفة؛ فتراه يستنكف الاستسلام لربه عز وجل، ويستكبر فلا يخضع له، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾ [**النساء**: ١٧٢ ـ ١٧٣].

ويقول الله ـ تعالى ـ في وصف المؤمنين: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾

[**السجدة**: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كلما ازداد القلب حبّاً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه، والقلب

(١) جامع العلوم والحكم، (١/ ١٥٥).

فقير بالذات إلىٰ الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه»[١].

وقال ابن القيم: «إنَّ مقام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً للّه وانقياداً وطاعة، ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لقهره، ذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه»[٢].

التواضع من مقتضيات التذلُّل لله ـ عز وجل ـ:

ومن مقتضيات التذلل لله ـ عز وجل ـ نزع جلباب الكبرياء والتعالي والتعاظم، والانكسار بين يدي جبار السماوات والأرض، والخضوع لأمره ونهيه، فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «العزّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني

(١) مجموع الفتاوىٰ، (١٠/ ١٩٣ ـ ١٩٤).
(٢) مفتاح دار السعادة، (١/ ٥٠٠).

عذبته»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يُقال له: بُولَس، فتعلوهم نار الأنيار، يُسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار»[٢].

والمتأمل في جميع العبادات الظاهرة والباطنة يظهر له بجلاء أن مقصود العبادة أن يُطامن العبد من كبريائه، ويتذلل لمولاه، ويظهر الفاقة والمسكنة لربه ـ عز وجل ـ، انظر في أحكام الصلاة أو الصوم أو مناسك الحج.. ونحوها، تجد ذلك جلياً لا غموض فيه. ولهذا فإن الكبر والخيلاء والتعالي من قوادح الإيمان بالله والافتقار إليه، قال رسول الله ﷺ: «لايدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبرياء»[٣].

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة، (٤/ ٢٠٢٣)، رقم (٢٦٢٠).
قال الإمام النووي: «الضمير في إزاره ورداؤه يعود إلى الله ـ تعالى ـ للعلم به، وفيه محذوف تقديره: قال الله ـ تعالى ـ، ومن ينازعني ذلك أعذبه». شرح صحيح مسلم، للنووي، (١٦/ ١٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد، (١١/ ٢٦٠)، رقم (٦٦٧٧)، والترمذي في كتاب صفة القيامة، (٤/ ٦٥٥)، رقم (٢٤٩٢)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد، والألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (٧٨٩٦).

(٣) أخرجه: مسلم في كتاب الإيمان، (١/ ٩٣)، رقم (٩١).

ومن تمام التذلل لله ـ عز وجل ـ والافتقار إليه، ألا يتكبر الإنسان على الخلق مهما بلغ جاهه، أو عظم سلطانه، أو ماله، أو علمه؛ لأنه يعرف قدره، ويعرف مآل المتكبرين في الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟ كل ضعيف متضعَّف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جوَّاظ مستكبر»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «احتجت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبارون المتكبرون. وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين. فقال الله ـ عز وجل ـ لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء ـ وربما قال: أصيب بك من أشاء ـ، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»(٢).

ومن حكمة الخالق ـ جل وعلا ـ أن المتكبرين الذين يتعاظمون على

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب التفسير، (٨/ ٦٦٢)، رقم (٤٩١٨)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، (٤/ ٩٢١٩٠)، رقم (٢٨٥٣).
وقال النووي: «ضبط قوله: متضعَّف، بفتح العين وكسرها، والمشهور الفتح، ولم يذكر الآخرون غيره، ومعناه: يستضعفه الناس ويتحقرونه، ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا، يقال: تضعفه واستضعفه.
أما رواية الكسر فمعناها: متواضع متذلل خامل، واضع من نفسه. قال القاضي: وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان». شرح مسلم، للنووي، (١٧/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، (٤/ ٢١٨٦)، رقم (٢٨٤٦).

الخلق يذلهم الله ويضع من منازلهم وأقدارهم، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته. وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته»(١).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنَّ العبد إذا تواضع لله ـ عز وجل ـ رفع حكمته، وقال: انتعش رفعك الله، فهو في نفسه حقير، وفي أعين الناس كبير. فإذا تكبر وعدا طوره وهصه إلى الأرض(٢)، وقال: اخسأ أخساك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير، حتى إنَّه أحقر في أعينهم من الخنزير»(٣).

---

(١) أخرجه: الطبراني في المعجم الكبير، (١٢/ ٢١٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٥٣٨)، وصحيح الجامع الصغير، رقم (٥٥٥١).

(٢) وهصه: «ضرب به الأرض. قال أبو عبيد: وهصه يعني: كسره ودقه»، لسان العرب، (٧/ ١٠٨).

(٣) أخرجه: ابن أبي شيبة في مصنفه، في كتاب الأدب، (٩ / ٩٠)، رقم (٦٦٣٤)، وكتاب الزهد، (١٣/ ٢٧٠)، رقم (١٦٣٠٨)، والبيهقي في المدخل إلى السنن، ص (٥٣٨)، رقم (٦٠١)، وإسناده صحيح.

العلامة الثانية: التعلق بالله - تعالى - وبمحبوباته:

فشعور العبد بفقره وحاجته إلىٰ ربه - عز وجل - يدفعه إلىٰ الاستكانة له والإنابة إليه، ويتعلق قلبه بذكره وحمده والثناء عليه، والتزام مرضاته، والامتثال لمحبوباته.

قال بعض الصالحين: «مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب»(١).

ولهذا ترىٰ العبد الذي تعلق قلبه بربه - وإن اشتغل في بيعه وشرائه، أو مع أهله وولده، أو في شأنه الدنيوي كله - مقيماً علىٰ طاعته، مقدماً محبوباته علىٰ محبوبات نفسه وأهوائها، لا تلهيه زخارف الدنيا عن مرضاة ربه، قال الله - تعالىٰ -: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٧٧].

وثبت في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: (سبعة يظلهم الله في

(١) شذرات الذهب، (٢/ ٣٢٦).

ظله يوم لا ظل إلا ظلّه . .)، وذكر منهم: (رجل قلبه معلَّق في المساجد)(١). قال الحافظ ابن حجر: «إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجاً عنه»(٢). ولاحِظْ هذا التعبير البليغ: (قلبه معلّق)، وهذا يعني: أنه دائم الصلة بالله تعالى، دائم الاستحضار لأوامره، لا يشغله عن ذلك شاغل، ولا يصرفه عنه صارف، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧]. وثبت في الحديث الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «أنّ رسول الله ﷺ كان يكون في مهنة أهله ـ تعني: خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»(٣).

ويصف الإمام ابن القيم الافتقار إلى الله ـ تعالى ـ بقوله: «يتخلى بفقره أن يتألَّه غير مولاه الحق، وأن يُضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يُفرِّق همومه في غير محابه، وأن يُؤْثر عليه في حال من الأحوال،

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأذان، (٢/ ١٤٣)، رقم (٦٦٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، (٢/ ٧١٥ ـ ٧١٦)، رقم (١٠٣١).
(٢) فتح الباري، (٢/ ١٤٥).
(٣) أخرجه: البخاري في كتاب الأذان، (٢/ ١٦٢)، رقم (٦٧٦).

فيوجب له هذا الخلق وهذه المعاملة صفاء العبودية، وعمارة السر بينه وبين الله، وخلوص الود، فيصبح ويمسي ولا همّ له غير ربه، فقد قطع همُّه بربه عنه جميع الهموم، وعطلت إرادته جميع الإرادات، ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه»(١).

ومن تعلّق قلبه بربه وجد لذة في طاعته وامتثال أمره لا تدانيها لذة، «فأوامر المحبوب قرة العيون، وسرور القلوب، ونعيم الأرواح، ولذات النفوس، وبها كمال النعيم، فَقُرَّةُ عين المحب في الصلاة والحج، وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة. وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله سبحانه؛ فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه مَنْ ليس له نصيب منه، وكل مَنْ كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم»(٢).

وأعظم الناس ضلالاً وخساراً مَنْ تعلّق قلبه بغير الله تعالى، ويزداد ضلاله وخساره بزيادة تعلُّقه بغير مولاه الحق، ولهذا كان ركون العبد إلى الدنيا أو إلى شيء من زخرفها آية من آيات العبودية لها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(١) طريق الهجرتين، (ص ١٨).
(٢) المرجع السابق، (ص ٧٠).

وقال رسول الله ﷺ: (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي منها رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس وإذا شِيكَ فلا انتقش)(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل مَنْ علَّق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً متصرفاً بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له؛ يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه. فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استُعبد بدنه واستُرق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً. وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية لما استعبد القلب»، ثم قال: «ومن أعظم هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الجهاد، (٦/ ٨١)، رقم (٢٨٨٧).

شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب»(١).

وقال الإمام ابن القيم: «أعظم الناس خذلاناً مَنْ تعلَّق بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه؛ أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرَّض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير اللَّه كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت»(٢).

وقال أيضاً: «تعلُّق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه؛ عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عبّاد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها؛ فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها، ودعا عليه بالتعس والنكس»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ١٨٥ ـ ١٨٧).
(٢) مدارج السالكين، (١/ ٤٥٨).
(٣) الفوائد، (ص ٢١٧).

العلامة الثالثة: مداومة الذكر والاستغفار:

فقلب العبد المؤمن عاكف على ذكر مولاه، والثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى في كل حال من أحواله، دائم التوبة والاستغفار عن الزلل أو التقصير، يجد لذته وأنسه بتلاوة القرآن، ويرى راحته وسكينته بمناجاة الرحمن. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد وصف الله ـ عز وجل ـ أهل الإيمان بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

كما أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه بمداومة الذكر والاستغفار، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: (يا أيها الناس! توبوا إلى اللَّه؛ فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة)[1].

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب الذكر، (٤/ ٢٠٧٥ـ٢٠٧٦)، رقم (٢٧٠٢).

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (والله! إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة)[١]. وقال: (إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة)[٢].

إنَّ مداومة الذكر والاستغفار آية من آيات الافتقار إلى الله تعالى، فالعبد يجتهد في إظهار فاقته وحاجته وعجزه، ويمتلئ قلبه مسكنة وإخباتاً، ويرفع يديه تذللاً وإنابة؛ فهو ذاكر لله ـ تعالى ـ في كل شأنه، في حضره وسفره، ودخوله وخروجه، وأكله وشربه، ويقظته ونومه، بل حتى عند إتيانه أهله، فهو دائم الافتقار إلى عون الله ـ تعالى ـ وفضله، لا يغفل ساعة ـ ولا أدنى من ذلك ـ عن الاستعانة به والالتجاء إليه.

ومقتضى ذلك أنه لا يركن إلى نفسه، ولا يطمئن إلى حوله وقوته، ولا يثق بماله وجاهه وصحته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ لبعض أصحابه: (اللهم! لا تكلهم إليَّ فأضعف، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم)[٣].

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الدعوات، (١١ / ١٠١)، رقم (٦٣٠٧).
(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الذكر، (٤ / ٢٠٧٥)، رقم (٢٧٠٢).
(٣) أخرجه: أحمد، (٣٧/ ١٥١)، رقم (٢٤٨٧)، وأبو داود في كتاب الجهاد، (٣/ ٩٧)، رقم (٢٥٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٢/ ٤٨٢)، لكن ضعفه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

وعن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو؛ فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)[١].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ: (ما يمنعكِ أن تسمعي ما أوصيكِ به؟! أن تقولي إذا أصبحتِ وأذا أمسيتِ: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين أبداً)[٢].

تأمَّل أذكار النبي ﷺ وأدعيته تَرَ عجباً في هذا الباب؛ ففي سيد الاستغفار تتجلىٰ أعظم معاني العبودية، وتبرز أسمىٰ معاني الانكسار والتذلل .. (اللهم! أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد، (٣٤/ ٧٥)، رقم (٢٠٤٢٩)، وأبو داود في كتاب الأدب، (٤/ ٣٢٤)، رقم (٥٠٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٤٢٤٦)، والأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) أخرجه: ابن السنّي في عمل اليوم والليلة، رقم (٤٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٢٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، (١١/ ٩٨)، رقم (٦٣٠٦).

وتأمَّل دعاء النبي ﷺ وتذلله إذا قام من الليل يتهجد ويناجي ربه، قال: (اللهم! لك الحمد أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد لكَ مُلْك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم! لك أسلمت، ولك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرت، وما أسررتُ وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو لا إله غيرك)[١].

إنَّ حمد الله ـ تعالى ـ وشكره، والثناء عليه بما هو أهله، مع الاعتراف بالذنب والعجز؛ يعمّر القلب بالنور، ويوجب له الطمأنينة والسعادة، وما أجمل كلام الإمام ابن القيم عندما قال: «إن في القلب خلة وفاقة لا يسدَّها شيء ألبتة إلا ذكر الله عز وجل، فإذا صار الذكر شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة، واللسان تبع له؛ فهذا هو الذكر

(١) أخرجه: البخاري في كتاب التهجد، (٣/ ٣)، رقم (١١٢٠)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، (١/ ٥٣٢)، رقم (٧٦٩).

الذي يسدّ الخلة ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنياً بلا مال، عزيزاً بلا عشيرة، مهيباً بلا سلطان. فإذا كان غافلاً عن ذكر الله عز وجل؛ فهو بضد ذلك، فقير مع كثرة جدته، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته»[١].

(١) الوابل الصيب، (ص ١٣٩).

العلامة الرابعة: الوجل من عدم قبول العمل:

فمع شدة إقبال العبد على الطاعات، والتقرب إلى الله بأنواع القربات؛ إلا أنه مشفق على نفسه أشد الإشفاق، يخشى أن يُحْرَم من القبول، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ [**المؤمنون**: ٦٠]: أَهُمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون؟! قال: (لا يا ابنة الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات)[١].

فعلى الرغم من حرصهم على أداء هذه العبادات الجليلات فإنهم لا يركنون إلى جهدهم، ولا يُدِلُّون بها على ربهم، بل يزدرون أعمالهم، ويُظهرون الافتقار التام لعفو الله ورحمته، وتمتلئ قلوبهم مهابة ووجلاً، يخشون أن تُرَد أعمالهم عليهم، والعياذ بالله، ويرفعون أكف الضراعة ملتجئين إلى الله يسألونه أن يتقبل منهم.

وتأمَّل قصة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عندما دخل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي تموت، فلما جلس قال: أبشري. فقالت:

---

(١) أخرجه أحمد، (٤٢/ ١٥٦، ٤٥٦)، رقم (٢٥٢٦٣ و ٢٥٧٠٥)، والترمذي في تفسير القرآن، (٥/ ٣٢٧)، رقم (٣١٧٥)، وابن ماجه في الزهد، (٢/ ١٤٠٤)، رقم (٤١٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٦٢).

أيضاً! فقال: ما بينك وبين أن تلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنتِ أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلىٰ رسول الله، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتكِ ليلة الأبواء، فأصبح رسول الله ﷺ حتىٰ يصبح في المنزل، وأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله - عز وجل - أن تيمموا صعيداً طيباً، فكان ذلك في سببك وما أنزل الله - عز وجل - لهذه الأمة من الرخصة. وأنزل الله براءتكِ من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله يُذكر فيه الله؛ إلا يتلىٰ فيه آناء الليل وآناء النهار».

ما الظنّ بعائشة - رضي الله عنها - بعد هذا الثناء..؟!

هل ركنت إلىٰ عملها واطمأنت علىٰ حالها..؟!

حاشاها - رضي الله عنها -، بل قالت: «دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده! لوددت أني كنتُ نسياً منسياً!»[1].

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه علىٰ قول عائشة - رضي الله عنها -: «هو علىٰ عادة أهل الورع في شدة الخوف علىٰ أنفسهم»[2].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد، (٤/ ٢٩٨)، رقم (٢٤٩٦)، وقوّىٰ إسناده المحقق. وقد رواه مختصراً: البخاري في كتاب التفسير، (٨/ ٤٨٢ - ٤٨٣)، رقم (٤٧٥٣).

(٢) فتح الباري، (٨/ ٤٨٤).

وتتأكد حقيقة الوجل من عدم القبول عند أهل الإيمان بأربعة أمور:

الأول: أنَّ الله - عز وجل - غني عن طاعات العباد:

فالله - جل وعلا - غني عن عباده، وليس في حاجة إلى عبادتهم وطاعاتهم، قال الله - عز وجل -: ﴿**وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [**لقمان**: ١٢]، وقال - تعالى -: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [**الزمر**: ٧]، وقال - تعالى -: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [**النمل**: ٤٠]، وقال - تعالى -: ﴿**وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [**إبراهيم**: ٨].

وفي الحديث القدسي قال الله - تعالى -: (يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)(١).

---

(١) أخرجه: مسلم في كتاب البر والصلة، (٤/ ١٩٥٥)، رقم (٢٥٧٧).

قال قتادة وغيره من السلف: «إنَّ الله ـ سبحانه ـ لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه، ولا نهاهم عنه بخلاً منه، بل أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم»(١).

الثاني: أنَّ قبول الأعمال إنما هو من فضل الله ورحمته:

ولهذا قال رسول الله ﷺ: (والله! لا أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي ولا بكم)(٢).

فإذا كان هذا هو حال سيد ولد آدم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فكيف بغيره من الناس؟!

ومَنْ قرأ قول النبي ﷺ: (لن ينجي أحداً منكم عملُه)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)(٣)؛ أيقن بضعفه وعجزه، وازداد تضرعاً وافتقاراً إلى ربه جل وعلا، ولم يتعاظم في نفسه، أو يُعجب بجهده وعمله. قال الإمام ابن القيم: «كلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس،

(١) قاعدة في المحبة، (ص ٢٥٥).
(٢) أخرجه: البخاري في كتاب الجنائز، (٣/ ١١٤)، رقم (١٢٤٣)، وفي كتاب التعبير، (١٢/ ٤١٠)، رقم (٧٠١٨).
(٣) أخرجه: البخاري في كتاب الرقاق، (١١/ ٢٩٤)، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، (٤/ ٢١٦٩)، رقم (٢٨١٦).

وتبيَّن لك أنَّ ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين؛ خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله»(١).

وكلما شعر العبد بهذه الحقيقة بانت له عظمة الخالق جل وعلا، وعرف مقدار نفسه، وهكذا ربَّىٰ النبي ﷺ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، فها هو ذا أجلّهم وأعلاهم منزلة ـ أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يقول للنبي ﷺ: (علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي!)، والنبي ﷺ أعرف الناس بصاحبه ومع ذلك قال له: (قل: اللهم! إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)(٢).

إنها تربية ربانية تحدُّ من استعلاء العبد، وتجعله دائم الافتقار إلىٰ ربه، دائم الانكسار بين يديه، وإذا كانت هذه هي وصية النبي ﷺ لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو مَنْ هو إمامة وجلالة وجهاداً ونصرة لدينه وذباً عن نبيه ﷺ؛ فكيف يكون حالنا ونحن المذنبون المفرطون؟! نسأل الله السلامة.

وكنت أعجب من حال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كيف يخشىٰ

(١) مدارج السالكين، (١/ ١٧٦).
(٢) أخرجه: البخاري في كتاب الأذان، (٢/ ٣١٧)، رقم (٨٣٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، (٢/ ٢٠٧٨)، رقم (٢٠٧٥).

النفاق على نفسه، وهو الفاروق الذي بشّره النبي ﷺ بالجنة؟!

ثم عرفت أن العبد كلما ازداد عبودية وافتقاراً إلى ربه ازداد ازدراء للنفس وخوفاً عليها، وتعلق قلبه بربه ـ سبحانه وتعالى ـ، قال الحسن البصري: «ما خافه ـ يعني: النفاق ـ إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق»(١).

وقال الجعد أبو عثمان: «قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق؟! قال: نعم، إني أدركت بحمد الله منهم صدراً حسناً، نعم شديداً، نعم شديداً»(٢).

وقال ابن أبي مليكه: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل»(٣).

قال ابن حجر: «والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلِّهم:

(١) أخرجه: البخاري معلقاً بصيغة التمريض، لكن صحح إسناده ابن حجر في الفتح، كتاب الإيمان، (١/ ١٠٩). وساق ابن حجر إسناده في تعليق التعليق، (٢/ ٥٣)، وقال: «ورجال هذا الإسناد ثقات». وقال ابن رجب الحنبلي: «هذا مشهور عن الحسن، صحيح عنه». فتح الباري، لابن رجب، (١/ ١٩٥).

(٢) أخرجه: أبو نعيم في حلية الأولياء، (٢/ ٣٠٧)، والفريابي في صفة المنافق، ص (٣١)، رقم (٨١)، وحسن إسناده المحقق.

(٣) أخرجه: البخاري معلقاً بصيغة الجزم، في كتاب الإيمان، (١/ ١٠٩). وانظر: تغليق التعليق، (٢/ ٥٣).

عائشة، وأختها أسماء، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك أن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى، رضي الله عنهم»(١).

وقال ابن رجب الحنبلي: «كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر، كما تقدم أن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة»(٢).

الثالث: أن المنة لله جميعاً:

فالمؤمن ينسب ما به من نعمة، وما عنده من طاعة؛ إلى ربه ومولاه ـ عز وجل ـ، فله الفضل والمنَّة، ولا يزعم أن ذلك من حوله وكده

---

(١) فتح الباري، (١/ ١١٠ ـ ١١١).
(٢) جامع العلوم والحكم، (١/ ١١٧).

وجهده، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾

[**الأنعام**: ١٢٥].

وقال تعالىٰ ـ: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**﴾ [**الحجرات**: ١٧].

وفي الحديث القدسي قال الله ـ تعالىٰ ـ: (يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم)[1].

ومن عجائب آي الذكر الحكيم: ما ورد في مطلع سورة المدثر، فعندما أُمر النبي ﷺ بالنذارة بادئ الأمر، وُضِّح له طبيعة الطريق، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿**وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ**﴾ [**المدثر**: ٦].

إنها وصية واضحة لا غموض فيها، تجرد العبد من استعلائه وإدلاله علىٰ ربه؛ تملأ القلب مهابة وإجلالاً لله ـ عز وجل ـ صاحب الفضل والمنَّة.

ومن لطائف هذا الباب أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حينما طُعن وجعل يألم، قال له عبد الله بن عباس مواسياً: «يا أمير المؤمنين،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، (٤/ ١٩٥٥)، رقم (٢٥٧٧).

ولئن كان ذاك، لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبتَ أبا بكر فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبتَ صحبتهم فأحسنتَ صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون». . وبعد هذا الثناء العظيم على أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ؛ تأمّل جوابه عندما قال لابن عباس: «أمّا ما ذكرتَ من صحبة رسول ﷺ ورضاه: فإنما ذلك منٌّ من الله ـ تعالى ـ عليَّ، وأمّا ما ذكرتَ من صحبة أبي بكر ورضاه: فإنما ذاك منٌّ من الله ـ جل ذكره ـ منَّ به عليَّ، وأمّا ما ترى من جزعي: فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله! لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهباً لافتديتُ به من عذاب الله ـ عز وجل ـ قبل أن أراه»[1].

الرابع: أنَّ العبد لا يأمن على نفسه الفتنة:

فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)[2].

فالعبد ـ مهما بلغت منزلته ـ لا يأمن على نفسه الفتنة، ويخشى أن

(١) أخرجه: البخاري في كتاب فضائل الصحابة، (٧/ ٤٣)، رقم (٣٦٩٢).
(٢) أخرجه: مسلم، (في كتاب القدر)، (٤٠/ ٢٠٤٥)، رقم (٢٦٥٤).

تجرفه رياح الأهواء والفتن، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك)[١].

فإمام المتقين يتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ بهذا الدعاء افتقاراً إلى الله تعالى، فكيف بنا ونحن الفقراء المحاويج..؟!

ومن كان لا يأمن على نفسه رأيته أشد وجلاً على نفسه، وأشد انكساراً بين يدي مولاه العظيم ـ سبحانه وتعالى ـ. قال جبير بن نفير: «دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلمَّا جلس يتشهد فجعل يتعوذ بالله ـ عز وجل ـ من النفاق، فلما انصرف قلت له: غفر الله لك يا أبا الدرداء، ما أنت والنفاق؟! ما شأنك وما شأن النفاق؟! فقال: اللهم غفراً ـ ثلاثاً ـ، لا يأمن البلاء من يأمن البلاء، والله إن الرجل ليفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه»[٢].

ولهذا فإن من أدرك هذه الحقائق الأربعة؛ علم أنَّ إعجاب المرء بطاعته وإدلاله بها على ربه من أعظم الأدواء والآفات التي تُسقط العبد، وتجعله على شفا جرف من الضلال والانتكاس، والعياذ بالله!

(١) أخرجه: مسلم، (في كتاب القدر)، (٤/ ٢٠٤٥)، رقم (٢٦٥٤).
(٢) صفة المنافق، لجعفر الفريابي، ص (٦٩)، رقم (٧٤)، وصحح إسناده المحقق.

قال مطرف بن عبد الله الشخّير: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً؛ أحبّ إليَّ من أن أبيت قائماً فأصبح معجباً»[١].

وقال الإمام ابن القيم: «إنك إن تبيت نائماً وتصبح نادماً؛ خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل. وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبّحين المدلين. ولعلَّ الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر»[٢].

وقال في وصف مشهد الذل والافتقار: «يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه، ومَنْ بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنما تُدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كَسْرة خاصة لا يشبهها شيء؛ بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يرغب في مثله.

وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما منّ ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً

(١) الزهد، لعبد الله بن المبارك، (ص ١٥١).
(٢) مدارج السالكين، (١/ ١٧٧).

منه ولا كثيراً. فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها ـ ولو ساوت طاعات الثقلين ـ من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله».

ثم قال ابن القيم: «فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد وأجداه عليه! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله ـ سبحانه ـ: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله»[١].

(١) مدارج السالكين، (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩). وانظر: الوابل الصيب، (ص ٢٠ ـ ٢٣).

العلامة الخامسة: خشية الله في السر والعلن:

الخوف من الله - تعالى - من أجلّ صفات أهل الإيمان، قال - عز وجل -: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال - عز وجل -: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

وخشيته - عز وجل - في السر والعلن من أعظم آيات الافتقار والفاقة إليه - سبحانه -، فمن عرف الله - تعالى - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأدرك عظمته وجبروته، وسلطانه الذي لا يُقهر، وعينه التي لا تنام، وقدَّره حق قدره؛ خاف منه حق الخوف، ولهذا قال الله - عز وجل -: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال - تعالى -: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]. وقال - تعالى -: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤].

ومن كانت هذه هي حاله رأيته متيقظ القلب، يرتجف خشية وإشفاقاً، دائم المناجاة لربه، يستجير به ويستغيث استغاثة المفتقر الذليل، قال الله - تعالى -: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ

ربِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]. وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦]. وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٤]، قال الحسن البصري: «تجري دموعهم على خدودهم فَرَقاً من ربهم»(١).

وتأمل معي قول الحق ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

فهو الافتقار التام لله عز وجل، والانكسار بين يديه تذللاً وإنابة، قال الأستاذ سيد قطب: «إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾، ثم تنطلق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾، ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه، فإذا الدموع تنطلق معبّرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوّره الألفاظ»(٢).

---

(١) الخشوع في الصلاة، لابن رجب، (ص ٣١).
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٢٥٤).

وشرط الخشية الصادقة أن تكون بالغيب؛ لأن القلب لا يتعلق إلا بالله، ولا يلتفت إلى ما سواه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ [**الملك**: ١٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ** ﴾ [**الأنبياء**: ٤٩]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾ [ق: ٣١-٣٣]. وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..)، وذكر منهم: (ورجل ذكر اللّه خالياً ففاضت عيناه)[١]. قال الحافظ ابن حجر: «خالياً: أي من الخلو؛ لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء، والمراد: خالياً من الالتفات إلى غير الله ولو كان في ملأ»[٢].

والخوف من الله ـ عز وجل ـ عبادة قلبية تدفع العبد إلى الحرص والجدية والإقبال على الطاعة، قال رسول الله ﷺ: (مَنْ خاف أدلج، ومَنْ أدلج بلغ المنزل)[٣]. ولهذا قال الحافظ عبيد الله بن جعفر: «ما

(١) تقدم تخريجه.
(٢) فتح الباري، (٢/ ١٤٧).
(٣) أخرجه: الترمذي في كتاب صفة القيامة، (٤/ ٦٣٣) رقم (٢٤٥٠)، والحاكم في كتاب الرقاق، (٤/ ٣٠٧-٣٠٨)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٦٠٩٨). والدلجة: السير في آخر الليل، أو سير الليل كله، انظر: لسان العرب، مادة (دلج)، (٤/ ٣٨٥).

استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله»(١). وتتجلى حقيقة هذه العبادة القلبية على الجوارح، ولهذا جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله: (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله!)(٢). فالمعصية تعرضت له بأكمل زينتها، وأبهى فتنتها، وهو بشر كالبشر، لكن ما حبسه عنها إلا الخوف من الله عز وجل، ونظير هذا ما جاء في حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار، فقال أحدهم: (اللهم! إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجال النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار. فسعيت فيها فجمعتها، فلما قعدتُ بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه! فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة..)(٣)، وفي لفظ: (فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا)(٤).

(١) سير أعلام النبلاء، (٦ / ٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه: البخاري في عدة مواضع منها: كتاب البيوع، (٤/ ٤٠٩)، رقم (٢٢١٥)، ومسلم في كتاب بالذكر والدعاء والتوبة، (٤/ ٢٠٩٩-٢١٠١)، رقم (٢٧٤٣).
(٤) أخرجه: البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، (٦/ ٥٠٦)، رقم (٣٤٦٥).

فالمرأة الضعيفة استسلمت له، ولم تملك إلا تخويفه بالله عز وجل، فاستيقظ قلبه، وامتلأ خشية من الله، فحال ذلك بينه وبين المعصية، ومن أجمل ما وقفت عليه في تعريف الخشية قول سعيد بن جبير: «إن الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية»[١].

(١) حلية الأولياء، (٤/ ٢٧٦)، وسير أعلام النبلاء، (٤/ ٣٢٦).

العلامة السادسة: تعظيم الأمر والنهي:

فغاية العبودية: التسليم والانقياد محبَّة وتذللاً، فتعظيم الأمر والنهي من تعظيم الله جلَّ وعلا، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [**الحج**: ٣٠]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [**الحج**: ٣٢].

وما انتشرت المعاصي، وكثرت المنكرات والأهواء في ديار المسلمين؛ إلا بسبب ضعف الإيمان، والتهاون في تعظيم أمر الله ـ عز وجل ـ ونهيه.

وتعظيم الأمر والنهي يعني: الوقوف عند حدود النصوص الشرعية، والالتزام الصادق بمقتضاياتها ودلائلها، والعض عليها بالنواجذ، فأَمْر الله ـ عز وجل ـ وأَمْر رسوله ﷺ حقه الإجلال والامتثال، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [**الأحزاب**: ٣٦].

قال الإمام ابن القيم: «استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله ـ تعالى ـ تتقدم عنده على جميع المحاب.

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله ـ تعالى ـ ذمَّ من لا يُعظِّمه ولا يعظِّم أمره ونهيه، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** ﴾ [**نوح**: ١٣]، قالوا في

تفسيرها: ما لكم لا ترجون لله - تعالىٰ - عظمة». ثم قال: «.. فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش علىٰ أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص علىٰ تحسينها وفعلها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها..». ثم ذكر عدداً من علامات تعظيم المناهي، وهي علىٰ وجه الاختصار:

«١ - الحرص علىٰ التباعد عن مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرّب إليها.

٢ - أن يغضب لله - عز وجل - إذا انتُهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزناً وكَسْرة إذا عُصي الله - تعالىٰ - في أرضه، ولم يُطع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

٣ - أن لا يسترسل مع الرخصة إلىٰ حد يكون فيه جافياً غير مستقيم علىٰ المنهج الوسط.

٤ - أن لا يحمل الأمر علىٰ علة تُضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلم لأمر الله - تعالىٰ - وحكمه، متمثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه أو لم تظهر ..»[١].

(١) الوابل الصيب، (ص ٢٤ - ٣٩) باختصار.

ومن المسائل الجديرة بالعناية في هذا الباب: أنَّ علىٰ العلماء وطلبة العلم والباحثين والمثقفين.. ونحوهم، العناية بالاستدلال، والاعتماد علىٰ النصوص الشرعية في العلم والعمل، «وقلَّ أن تُعْوِزَ النصوص مَنْ يكون خبيراً بها، وبدلالتها علىٰ الأحكام»(١). ويجب أن يكون نظرهم في النصوص نظر المفتقر إليها، المتتبع لهداياتها، الملتزم بدلالتها. وما أجمل قول الإمام الثوري: «إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»(٢).

ومَنْ نظر في النصوص الثابتة، ثم تقدم بين يديها، أو أغار عليها بالتأويل المتعسف، أو التحريف المتكلف، وراح يفسرها مجاراة لأهواء الناس، أو مداهنة لأهل العلمنة والتغريب؛ لم يكن في الحقيقة مفتقراً لها، معظماً لحدودها، قال ابن تيمية: «من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أن لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولاَ وجْده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدىٰ ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم»(٣).

---

(١) الحسبة في الإسلام، (ص ٦٥).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي، (١/ ١٤٢)، وذم الكلام وأهله، (١/ ١٨١).
(٣) مجموع الفتاوىٰ، (١٣/ ٢٨).

وأحسب أن الدعاة وأبناء الصحوة الإسلامية لو فقهوا هذه المسألة حق الفقه، والتزموها في مناهج التربية والحركة والإصلاح؛ لأثمر ذلك انضباطاً كبيراً في خططهم الدعوية والإصلاحية، ولساروا على جادة الصراط المستقيم، ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ قلَّ عند بعضهم تعظيم النصوص الشرعية، وأصبحت القوالب الحزبية والمصالح المتوهمة هي المعيار الذي توزن به شؤون الدعوة، نسأل الله السلامة!!

العلامة السابعة: سرعة التوبة بعد المعصية:

الخطأ والزلل صفة بشرية ملازمة للإنسان، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون، فيغفر الله لهم»(١). وقال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون»(٢).

فالتوبة إلى الله من أعظم وأجلِّ صفات أهل الإيمان، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [التحريم: ٨].

عرَّفها الإمام ابن القيم بقوله: «حقيقة التوبة هي: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل»(٣).

---

(١) أخرجه: أحمد، (٢٠/ ٣٤٤)، رقم (١٣٠٤٩). والترمذي في كتاب صفة القيامة، (٤/ ٦٥٩)، رقم (٢٤٩٩). وابن ماجه في كتاب الزهد، (٢/ ١٤٢٠)، رقم (٤٢٥١). وضعفه الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد، لكن حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (٤٣٩١).

(٢) أخرجه: مسلم في كتاب التوبة، (٤/ ٢١٠٦)، رقم (٢٧٤٩).

(٣) مدارج السالكين، (١/ ١٩٩).

والعبد الصالح إذا زلَّت به قدمه، وعصى الله ـ عز وجل ـ اتصف بصفتين متلازمتين:

الصفة الأولى: سرعة الندم والرجوع إلى الله.

فمن كان قلبه حياً بالإيمان لم يسرف على نفسه في فعل العصيان، ولم يصرّ على غيِّه؛ بل سرعان ما يرجع إلى ربه تائباً منيباً إليه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٠]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾ [ق: ٣١ – ٣٣].

قال الحافظ ابن كثير: «أوَّاب: أي رجَّاع، تائب، مقلع»(١).

الصفة الثانية: عدم الاستهانة بالمعاصي.

فهو لايستهين بالمعصية مهما كانت صغيرة، تحقيقاً لقول النبي ﷺ: «إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٢٢٩).

محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»(١) .

ولهذا كان السلف ـ رضي الله عنهم ـ يتحرجون أشد الحرج من الوقوع في المعاصي كبيرها وصغيرها ، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، إن كنا نعدها على عهد النبي ﷺ الموبقات»(٢) . وها هو ذا عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول : «إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه ، فقال به هكذا ـ قال أبو شهاب (أحد رواة الحديث) ـ: بيده فوق أنفه»(٣) .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الأثر : «قال ابن أبي جمرة : السبب في ذلك أن قلب المؤمن منوَّر ، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه . والحكمة في التمثيل بالجبل : أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه ، بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة . وحاصله : أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن من العقوبة بسببها ، وهذا شأن المسلم أنه دائم

---

(١) أخرجه : أحمد ، (٣٧/ ٤٦٧) ، رقم (٢٢٨٠٨) ، وحسنه ابن حجر في فتح الباري ، (١١/ ٣٢٩) ، وصححه الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد .
(٢) أخرجه : البخاري في كتاب الرقاق ، (١١/ ٣٢٩) ، رقم (٦٤٩٢) .
(٣) أخرجه : البخاري في كتاب الدعوات ، (١١/ ١٠٢) ، رقم (٦٣٠٨) .

الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح، ويخشى من صغير عمله السيئ»(١).

علاقة التوبة بالافتقار إلى الله:

من أجمل ما وقفت عليه في بيان حدِّ التوبة؛ قول أبي حامد الغزالي: «هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب»(٢). فالمؤمن الصادق يجد في قلبه ندماً وألماً على مقارفة العصيان، ويتفطر فؤاده فرقاً وخشية من ربه ـ عز وجل ـ؛ فالتوبة تملأ القلب افتقاراً إلى الله عز وجل، ويشعر العبد بذلِّ المسكنة والفاقة، فيلجأ إلى ربه منكسراً بين يديه، معترفاً بذنبه، باكياً على خطيئته، مستغفراً ربه، مستجيراً به، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [**الذاريات**: ١٧ – ١٨]. وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيت رسول الله ﷺ، فابتدأته، فأخذت بيده، قال: فقلت: يا رسول الله، ما نجاة المؤمن؟! قال: (يا عقبة، احرُس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)(٣).

---

(١) فتح الباري، (١١/ ١٠٥).
(٢) إحياء علوم الدين، (٤/ ٤).
(٣) أخرجه: أحمد، (٢٥/ ٥٦٩، ٦٥٤)، رقم (١٧٣٣٤و ١٧٤٥٢)، وحسنه المحققون، كما حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٨٩٠).

ولا يزال الانكسار والخضوع في القلب[١] بسبب المعصية، حتى تصبح التوبة من الذنب أنفع للعبد من كثير من القربات، قال الحسن البصري: «إنَّ الرجل ليذنب الذنب ما يزال به كئيباً، حتى يدخل الجنَّة»[٢]. وشرح ابن القيم قول بعض السلف: «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار!»، فقال: «يعمل الذنب فلا يزال نُصْبَ عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى ذكر ذَنْبه، فيُحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، وندماً؛ فيكون ذلك سبب نجاته. ويعمل الحسنة، فلا تزال نُصب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عُجباً، وكبراً، ومنَّة؛ فتكون سبب هلاكه.

فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات، وحسنات، ومعاملات قلبية من خوف الله، والحياء منه، والاطراح بين يديه منكِّساً رأسه خجلاً، باكياً، نادماً، مستقبلاً ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكبراً، وازدراءً للناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار.

---

(١) قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «جالسوا التوابين؛ فإنهم أرق شيء أفئدة»، أخرجه: هناد بن السري، في كتاب الزهد، (٢/ ٤٥١)، رقم (٨٩٤)، وقال المحقق: رجاله ثقات، وإسناده منقطع.

(٢) أخرجه: هناد بن السري، في كتاب الزهد، (٢/ ٤٥٢)، رقم (٨٩٧)، وأبو نعيم، في حلية الأولياء، (٣/ ٢٤٢) و (٧/ ٢٨٨).

ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المانِّ بها وبحاله على الله وعلى عباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك؛ فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظِّموه، ويخضعوا له، ويجد في قلبه بغضة لمن يفعل به ذلك»[١].

(١) مدارج السالكين، (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

فهرس المحتويات